جريدة إلكترونية مستقلة .. وفي رواية أخرى

الرئيسية ثقافة

# " عمائم العبودية" لجهاد الزين: تأملات في صناعة الجحيم

المدن - ثقافة | السبت 2025/12/27

نقل التيار الأصولي الجحيم الإلهي المفترض إلى جحيم إنساني

مشاركة عبر

حجم الخط

إعلان

**صدر عن دار نلسن كتاب " عمائم العبودية تأملات في انحطاط الأصوليّتين السنية والشيعية" للكاتب والصحافي جهاد الزين، هنا مقدمة الكتاب.**

هذه اللوحة التي اخترتها لتكون على غلاف كتابي الجديد، يعود تاريخ رسمها المرجَّح بين عامي 1510 و1520 والمكتشفة في أحد أديرة الرهبان في البرتغال والمجهولة الرسّام عرضها متحف اللوفر بين 10 تموز و20 تشرين الأولً 2022.
أتيحت لي فرصة مشاهدة المعرض خلال وجودي في باريس في تلك الفترة.
نحن هنا أمام تصوير للجحيم الإلهي شديد القسوة حتى أنه يختلف عن الصورة التقليدية لفكرة جهنم التي كل ما فيها نيران ملتهبة. اللوحة، كما قلت، قاسية ولكن فيها نوعا خاصا من القسوة كما نلحظ من القدْر (الوعاء الكبير) في صدر اللوحة الذي تُشوى فيه خمسة كائنات بشرية على نار ملتهبة نساءً ورجالًا بينما نرى في الزاوية اليسرى ثلاث نساء أو امرأتين ورجل معلّقين من أرجلهم بطريقة عقابية. لكلٍّ عقابُه حسب ذنبه أو ذنوبه ولذلك نشاهد في اختلاف هذه الأوضاع العقابية نساء ورجالا- الجميع عراة- متمددين بين حراس الجحيم فيما يلاحظ مقدمو المعرض وجود وجوه غير أوروبية وأدوات إفريقية وقرون

دعنا من تفاصيل اللوحة الرائعة، وهذا مديح بالرسّام وليس بالجحيم، كم بدت لي محرِّضة على التفكير بالجحيم المعاصر الذي نعيش، كالتغيّر المناخي والفقر والحروب، وفي العالم المسلم ولاسيما منطقتنا من حيث التخلف وانهيار الدول والمجتمعات والحروب الأهلية. لو توفّر لفنان معاصر أن يرسم جحيمنا بحرّاسِه الغلاظ والكريهين هل يرسم المسألة الأعمق وهي من هم المذنبون والشياطين وإلى أي حد علينا أن نتحمّل مسؤولية ديمومة هؤلاء الحراس والأهم مقدرتهم على المعاقبة وتسوير نظام المعاقبة هذا.
هل نحن إذن مع هذه اللوحة التي يبدو أنها رُسِمت في أوائل عصر النهضة الأوروبي امام انقلاب معاصر لفكرة الجريمة والعقاب بل الخطيئة والعقاب. شعوب تدفع ثمن إما عجزها عن تغيير شياطينها وإما مشاركتها في العقوبة الذاتية التي تحمل وتتحمّلها هذه الشعوب منذ عقود. لا أستطيع أن أقول أن اللوحة المشتهاة لزمننا هي مزيج من صلب البريء وتعذيب المذنب. بالمعنى السياسي الحديث لا يمكن أن يكون الشعب مذنباً لكي يوضع في أوعية تسخين يومي للأعصاب والوجوه والأقفية عاريا من أي حصانة اقتصادية واجتماعية وحتى وطنية في ظل وجود بعض حراس النظام حملة أيديولوجيات متعصبة، وطنية أو وأصولية لا يُشقّ لها لسان.
هي لوحة دقيقة تنم رسومات الأجساد فيها عن معرفة بيولوجية تميّز بها رسّامو عصر النهضة الأوروبي، ومقدمو المعرض يعتبرون الفن البرتغالي متأثرا بالرسم الإيطالي والرسم الهولندي. هي لوحة دقيقة بمعنى أنها تدفع، عدا الإعجاب الفني الكلاسيكي، إلى التفكير بالجحيم الإنساني في معناه الأكثر رعباً وتنوعاً.

***

نقل التيار الأصولي الجحيم الإلهي المفترض إلى جحيم إنساني كالذي نراه في اللوحة البرتغالية. إنها الفرضية حين تصبح واقعاً. ليس الله الذي يعاقب بل مجموعة حراس نصّبوا أنفسهم جلّادين.. فالدين لدى الأصوليين ليس وعداً

المطهِّرون. لا مطهر في الجحيم الديني الأصولي بل وعاء التعذيب الدائم. المثير في اللوحة البرتغالية أنني لم أجد موتا بل صراخا أسمعه تطلقه اللوحة "الانقلابية" في منظومة الفكر الغيبي.

كل فكر أصولي هو فكر عقابي، فالدين يتحوّل مع الأصولية، مسلّحةً كانت أم لا، إلى عملية عقابية مطلقة وحدهم التكفيريون يملكون ادعاء وجود مفاتيح ليس فقط الإفلات منها بل أيضا وأساسا مكافأة من يشبههم بنقيضها. نساء عاريات في الجحيم. لا حرية للعراء سوى في الجحيم. هذا الربط بين العراء والتعذيب يحصر الجسد في أُتون الخطيئة الدائمة. بهذا المعنى الأصولي يحتكر متعة الجسد البشري ويضع قواعدها.

***

المحاولة التي أقوم أو أحاول أن أقوم بها في هذا الكتاب هي رصد التناقض الجوهري بين الأصولية والحرية، ناهيك عن رصد المحتوى الثقافي الهزيل لكل تجليات الدعوة الأصولية في السياسة، وسهولة الانتقال من البعد الديني للعقاب إلى البعد البشري للتنكيل بالآخر. لكنها كتابة سياسية في النهاية لا تحمل أي ادعاء فني تنطلق من المُعاش الواقعي الذي خبره جيلنا على مدى عقود.

كتبتُ هذه المساهمات في أوقات مختلفة بين 2020 و2024 ما عدا محاضرة ألقيتها بدعوة من وزيرة الثقافة البحرينية الشيخة مي آل خليفة عام 2019 وكان في ذهني دائماً سواء في القسم الأول أو القسم الثاني أن أرصد الخطاب الأصولي كخطاب تنكيلي محاولًا ليس فقط تفكيكه بل رصد تفاؤليته وشراسته وفراغاته الفكرية والسياسية تاركا التباسه مع الدين، أو المدارس الأخرى للدين تحت وطأة السؤال الجوهري كقوة تحريضية. بينما في القسم الثاني شغلتني مظاهر التفوق الإسرائيلي، والجانب العسكري أحدها، في مجالات الثقافة والاقتصاد والتكنولوجيا العالية راصدا بقدر ما أستطيع تلك المفارقة بين التقدم السياسي والسلوك العنصري.

حرفيةَ للنص بل الأكثر والأقسى عقابيةً. إنها تفريغ بل إغلاق كامل احتكر التفسير فألغى النص وتأويله معا وخلق دينا مختلفا كما جفّف ينابيع الاختلاف. بغياب حق التأويل صار التأويل مشروع حرب أهلية لا مشروع تعددية فكرية تمثل تاريخيا منذ عصر النهضة الأوروبية الأساس الثقافي لأي تقدم غربي. وهذا ما أعالجه في الفصل الثالث من القسم الثالث بما يمثِّل النقطة التي أعتبرها الأهم في ما آلت إليه منظومة تفكيري (إذا صحّت تسميتها "منظومة" من دون ادعاء). إنه ما أسمّيه في محاضرة البحرين "الإسلام الغربي" المنوطة من وجهة نظري قيادته للمسار الإصلاحي للإسلام بعدما تحطّمت الإصلاحية التي أنتجتها الليبرالية الإسلامية الشرقية وانتهت أسيرة في يد التيارات الأصولية.


## الأكثر قراءة

محمد خضير... الطالع الأخير

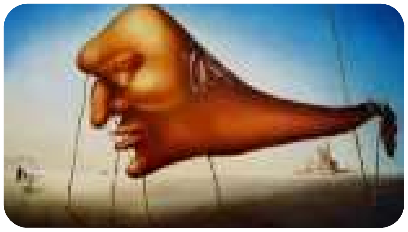

أحلام ذرفناها كل سنة في الوطن المستحيل

العام الذي أخذ داود عبد السيّد

إعلان

تابعنا عبر مواقع التواصل الإجتماعي

**إشترك في النشرة الإخبارية ليصلك كل جديد**

اشترك معنا في نشرة المدن الدورية لتبقى على اتصال دائم بالحدث

أدخل بريدك الإلكتروني

إعلان

جريدة "المدن" الإلكترونية جريدة إلكترونية مستقلة مقرها بيروت تمثل التيار المدني اللبناني والعربي

## النشرة البريدية

خطوة بسيطة وتكون من المطلعين على الخبر في لحظة ظهوره

أدخل بريدك الإلكتروني

اشترك

© جميع الحقوق محفوظة لموقع المدن 2026 محتويات هذه الجريدة محمية تحت رخصة المشاع الإبداعي